مخطوطات ومطبوعات

ديوان الشبيبي

أذكر ان السيد محمداً رضا الشبيبي هبط دمشق الشام سنة ١٩٢٠، وأقام بغرفة تُطل على شجرات شارع جمال باشا الذي سمي بعد انزعاج الترك عن الشام: شارع النصر، وقد كنت أزوره في تلك الغرفة وأتمتع بسهولة خلقه، وهدوء طبعه، واني لفي زيارته في يوم من الايام اذ مرّت بالشارع صِرْمة من الإبل يحدوها فتى أعرابي، فوقعت عين السيد الشبيبي على تلك الإبل فانحدرت دموعه على خديه، فبلغ مني العجب كل مبلغ، ولكني لم اسأله عن بكائه، ولم يستطع ان يكتم سبب البكاء، فقال: أتعرف لماذا أبكي؟ اني لما رأيت هذه الإبل، ذكرت العراق وإبل العراق وصحراوات العراق، فاشتد بي الحنين الى الوطن فبكيت.

اذا شاء القارئ ان لا يجد في هذا الخبر شيئاً ذا بال فله رأيه، غير اني لا استطيع ان امرّ بمثل هذا الخبر من دون ان اجعل له صلةً قوية بشاعرية السيد محمد رضا الشبيبي، فان تلك الدموع المضطربة على خديه كانت لي عنوان شعره، ولم اعجب بعد ما رأيت من فرط رقته من ان يكون ديوانه مرآةً صادقةً تعرض علينا ما تعاقب على العراق في خلال ثلاثين سنة من احداث، وما تقلب فيه من آلام.

وسواء أكانت هذه المرآة تعرض علينا صورة الحماسة ام الاجتماع ام الاخلاق ام الوجدان ام الوصف او الرثاء فانها مرآة من العصر الذي عاش فيه البحتري وأمثاله، على صورها رقة ذلك العصر، وعذوبة تلك الأيام، والذين يرون في زمننا هذا ان الشعر العربي قد مات او كاد يموت فاني اقول لهم: طالعوا ديوان

الشبيبي ، فان الشعر العربي النقي الديباجة ، الطاهر الغرض ، لا يزال حياً ، ولا تخلو هذه النقاوة وهذه الطهارة من كثير من البساطة ، والبساطة انما هي عنوان العظمة في كل شيء ، وقد فطن السيد الشبيبي الى فضلها فقال :

متى خيروني في الكلام ونسجه   رضيتُ بسيط القول لم أتأنق

ولماذا لا اذكر نموذجاً من هذا الشعر :

يا راكبين الى دمشق تزودوا   منا السلام ، لكل ركب زاد
الملك مضطرب النظام ، كأنه   جسد ، دمشق الشام منه فؤاد
هل في مروج الغوطتين لأهلها   ولرائديها مربع ومراد
وهل الرُّبا حُلل ضوافٍ طُرِّزت   وطرازها الازهار والأوراد
وشيت من الروض الاريض مطارف   خضرُ الأديم ، وفوِّفت أبراد
بين الغصون ومن مشين تشابه   في الحال ، كلٌّ مورق ميّاد
تلك القصور كأنهن قلائد   فوق الشطوط كأنها اجياد
أو ما تزال على معاهد جلّقٍ   ترد الضيوف وتصدر الورّاد

* * *

هذا هو الشعر الذي اذا قرأته فانك تشعر بأنك تقرأ شعراً عربياً عليه آثار بيان العرب وأسلوب العرب وتصوير العرب ، فلا عجمة في هذا البيان ، ولا غرابة في هذا الأسلوب ولا رطانة في هذا التصوير .

شفيق جبري